والملاحظ هنا أن الابداع الفكري العسكري ، والبحث عن وسائل المستقبل القتالية يتمان داخل الجيوش المهزومة بسرعة لا يتمان بها داخل الجيوش المنتصرة ، اذ تهز الهزيمة العقائد التقليدية القديمة وتطرحها للمناقشة وتلقي على عاتقها جزءا من مسؤولية الفشل ، على حين يثبت الانتصار المفاهيم التي انتصرت ، ويدفع القادة الى التمسك بالعقائد والاساليب التي أثبتت فاعليتها على أرض المعركة . ويحاول القادة المنتصرون نقل تصوراتهم الى جيل القادة الذي يليهم ، فاذا ما تبنى هذا الجيل مفاهيم أسلافه المكللة بغار المجد ، وحاول تطبيقها بشكل حرفي ، سار أول خطوة على طريق الفشل ، وخاصة اذا كانت هزيمة الخصم في الحرب السابقة قد حفزته بشكل قوي ودفعته الى البحث عن مفاهيم جديدة ، وتطوير أساليبه القتالية وتثويرها لتتلاءم مع الحرب المستقبلية .

ومهما كانت الزاوية بين خطي تطور مفاهيم الخصمين صغيرة في البداية ، فان المسافة بين الخطين تتباعد باستمرار طوال سنوات السلم ، حتى تخلق بين عقيدتي جيشي الخصمين هوة ليس من السهل ردمها . وتظهر أهمية هذه الهوة عندما يصطدم الجيشان من جديد ، وتبدو عيوب الجيش التقليدي أمام ديناميكية الجيش الذي حطم التقليدية بأساليب ثورية حديثة مبتكرة، ويحقق الجيش الثاني عددا من الانتصارات بفضل المفاجأة بأسلوب القتال أو نوع السلاح ويتعلم الخصم بالتدريج قواعد اللعبة ، ويبدأ تطبيقها ، وتفقد المفاجأة حجمها واهميتها ، وتغدو اساليب الامس الثورية الجديدة أساليب تقليدية ، ويعود مجال المفاجأة محصورا في اختيار زمان المعركة ومكانها . ويبدأ البحث من جديد عن طريقة ملائمة لتثوير الاساليب أو الاسلحة بغية زيادة امكانات المفاجأة التكتيكية والاستراتيجية .

وتنطبق كل هذه الامور على الصراع العربي — الاسرائيلي ، مع تعديل ناجم عن خصوصية هذا الصراع . ويتمثل هذا التعديل في أن اهتمام الدولتين العملاقتين بمنطقتنا، ووقوفهما سياسيا وتسليحيا وراء الطرفين المتنازعين يجعل اية مجابهة عربية — اسرائيلية نقطة احتكاك ساخنة في اطار التنافس الامريكي — السوفياتي الذي خفت حدته الى حد بعيد بعد انتهاء مرحلة الحرب الباردة وبدء مرحلة الوفاق الدولي دون أن تختفي كل آثاره بشكل كامل . ويؤدي اهتمام الدولتين العملاقتين بأي صراع يندلع في منطقتنا الى قيامهما ببذل الجهود المكثفة لتسليح الجيوش وتدريبها وتطوير أساليبها وتثوير وسائلها وخططها القتالية ، الامر الذي يجعل التثوير والتطوير غير متناسبين مع الامكانات المادية والمستويات الحضارية للطرفين المتنازعين ، وغير نابعين من ظروف المنطقة ، ولا يمثلان انعكاسا لهذه الظروف ، بل يمثلان بالاحرى انعكاسا محليا مصغرا للتطور العسكري الامريكي والسوفياتي في مجالات العقائد الحربية والتكتيكات والاسلحة ومعدات القتال ، مع قسط من الاسهام الذاتي يتناسب مع ديناميكية القيادات المحلية المتفهمة لحقائق المنطقة ومعطياتها .

ومن المهم قبل الخوض في بحث الملامح الثورية في الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة أن نشير الى ان التثوير الذي نقصده هنا يقتصر على الخروج عن التقليدية ضمن اطار الحرب التقليدية . وهو لا يشمل التثوير بمعناه « الماوي » ولكنه أقرب الى التثوير بمعناه « النابليوني » او « الغودرياني » نظرا لانه يتعلق بوسائط الحرب وأساليبها أكثر من تعلقه بروحها . ولتفسير ذلك لا بد من العودة قليلا الى جوهر الحرب . يقول الجنرال أندريه بوفر بأنه « اذا كانت اشكال الحرب تتبدل فان جوهرها ثابت لا يتغير : انه يتمثل في تحطيم ارادة الخصم لاجباره على قبول الشروط التي نود فرضها عليه »(٢) . وتحاول الحرب التقليدية تحقيق هذا الهدف عن طريق الانتصار العسكري في ساحة